مراحل التطور البلاغي في العصر الإسلامي

د. أحمد حسين جوده الشريفي
جامعة بابل – كلية التربية الأساسية

Stages of rhetorical development in the Islamic era

Dr. Ahmed Hussein Joda Al-Sharifi
University of Babylon – College of Basic Education
alshuraiye@gmail.com

الملخص:

البلاغة العربية من أجَلْ العلوم الإنسانية واللغوية والأدبية وأفضلها وأحقها بالتعلم، لأنها تميز الكلام الحسن من الرديء، ومن أهدافها المهمة فهم كتاب الله عز وجل ومعرفة صور إعجازه في ضوء الدلائل والقرائن البلاغية، ويعد القرآن الكريم مصدراً أساسياً لعلوم البلاغة؛ هدفت الدراسة إلى توضيح البلاغة وفنونها وتطورها وعلاقاتها بالعلوم الأخرى وتطبيق فنونها، وإدراك أثر الدرس البلاغي في تفسير آي الذكر الحكيم وتوضيح الدلالات البلاغية الكامنة. اتبعت الدراسة المنهج الوصفي الاستقرائي التحليلي. توصلت الدراسة إلى عدة نتائج منها: تناولت البيان بأنواعه وفنونه وردة الحقيقة والمجاز دلاليا وبلاغيا واستعمال علاقات المجاز المرسل في آيات وسور القرآن وكلام العرب لاسيما علاقته السببية وقد وردة في معنى قوله تعالى) :مكر الله) الذي جاء بمعنى (العقوبة)، و(الموت) بالجهاد في سبيل الله؛ وردة الاستعارة بصورها المختلفة في آيات سورة آل عمران مثل قوله تعالى: (والراسخون في العلم) أي المتمكنون في العلم تشبيها برسوخ الشيء الثقيل في الأرض على سبيل الاستعارة التصريحية، ذكرت الاستعارة التخيلية التي يرى فيها المتكلم لزوم التخصيص للمشبه بسبب تخيله في قوله تعالى(ذوقوا العذاب) فقد شبه بالمر مما يؤكل وتم حذف المشبه به وابقي شيء من لوازمه وهو الذوق؛ وردة الكناية في بنائها التعبيري وأركانها الثلاثة؛ ورد التشبيه بأنواعه الأربعة (التام، المرسل، المؤكد، البليغ).

الكلمات المفتاحية: مراحل، تطور البلاغة، العصر الإسلامي

Abstract:

Arabic rhetoric is one of the most important and worthy of study among the humanities، linguistics and literary sciences، because it distinguishes good speech from bad. One of its important objectives is to understand the Book of Allah، the Almighty، and to know the miracles it contains in light of rhetorical evidence and clues. The Holy Qur'an is considered a fundamental source for the sciences of rhetoric. The study aimed to clarify rhetoric and its arts، its development، its relationship with

other sciences، and the application of its arts، as well as to understand the impact of rhetorical study on the interpretation of the verses of the Holy Qur'an and to clarify the underlying rhetorical meanings. The study followed a descriptive، inductive، and analytical approach. The study reached several conclusions، including: It addressed rhetoric in its various types and arts، the literal and figurative meanings of words، and the use of figurative language in the verses and chapters of the Qur'an and in Arabic speech، especially its causal relationship، as mentioned in the meaning of Allah's saying: ‘The deceit of Allah،’ which means ‘punishment،’ and “death” in the cause of Allah; the metaphor in its various forms in the verses of Surah Al-Imran، such as the saying of Allah: ‘And those who are firmly grounded in knowledge،’ meaning those who are knowledgeable، likened to something heavy and firmly grounded in the earth، by way of an explicit metaphor. The figurative metaphor in which the speaker sees the need to specify the simile because of his imagination in His saying، ‘Taste the punishment،’ was mentioned. It was likened to something that is eaten، and the simile was omitted، leaving something of its implications، which is the taste. The metaphor in its expressive structure and its three pillars. The four types of simile (complete، implied، confirmed، and eloquent) are mentioned.
Keywords: stages، development of rhetoric، Islamic era

المقدمة:

البلاغة مثلها من العلوم الإنسانية ليس وليدة الساعة أو اليوم وإنما مرت وسارة بعدة مراحل ليكتمل نضجها فأصبحت علماً قائماً بحد ذاته ومستقل ذو قواعد وقوانين تميزه عن غيره.

بلاغة العرب في الجاهلية:

لبلاغة العرب في العصر الجاهلي باع طويل لا حدود له وهذا ظاهر للعيان من خلال ما وصـل إلينا من خلال البلاغين والأدباء وقد حفلت كتب الأدب كالأغاني لأبي الفرج الأصـفهاني والشعر والشعراء لابن قتيبة والموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمزرباني بنماذج عديدة من النقد الجاهلي الذي كان يدور في أســـواقهم المعروفة في الجاهلية، وما يدل على بلاغتهم، أن العرب كانت تعيب على الخلل في اختيار الكلام للشـــعراء والخطباء حيث عابت على النابغة الذبياني للإقواء الذي في شعره وغير ذلك الكثير وهناك حوادث اشتهرت للكثير من الشعراء وهذا أن دل فإنه يدل ويتضـح بلاغة العرب قبل آلاف السنين وضـمن منهاج متطور ونقد رصـين ذو مرتبة عالية من خلال ما نظم في ذلك الزمن، وما يصلح منه حسب ملاحظات بيانية.

وهذا يدل على أن الشعراء حينئذ كانوا يقفون عند اختيار الألفاظ والمعاني والصور، وكانوا يسوقون أحيانا ملاحظات لا ريب في أنها أصل الملاحظات البيانية في بلاغتنا العربية، ومن يتصفح أشعارهم يجدها تزخر بالتشبيهات والاستعارات، وتتناثر فيها من حين إلى حين ألوان من المقابلات والجناسات، مما يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يعنون عناية واسعة بأحسن الكلام والتفنن في معارضه البليغة ومثال ذلك ما ذكرنا عن النابغة عندما عابوا على الإقواء في شعره ولم يقوم أحد بمصارحته بالعيوب التي في شعره حتى إن دخل يثرب فأسمعه أحدهم غناء يشير إلى عيوبه، وهذا مقطع الأغنية :[١]

أمن آل أمية رائح أو مغتدي ..... عجلان ذا زاد وغير مزود

إلى قول: بمخضب رخص كأن بنانه ..... عنم يكاد من اللطافة يعقد

فانتبه النابغة إلى خطئه ولم يكرر ذلك مرة أخرى، ويذكر أنه عندما غادر قال أتيت يثرب فكشفت في شعري صنعة فرحلت منها وأنا أشعر العرب.

وتروي كتب الأدب هذا البيت قول النابغة.

زعم البوارح أن رحلتنا غداً وبذاك خبّرنا الغرابُ الأسودِ

وأنه أصلحه بقوله: وبذاك نعاب الغراب الأسود.

وتوجد الكثير من الشواهد على بلاغتهم في الجاهلية وما قبلها، لكن نكتفي بهذا القدر ونشير بذلك أن العرب في العصر الجاهلي وجدت لديهم ملكة فنية تمكنوا عن طريقها تمييز الكلام جيده من رديئة.

ويوضح هذا إن ملاحظاتهم النقدية كانت تعتمد على الذوق فهي نقد ذاتي لم يقوم على التعليل والتفصيل، وبتقدم الزمن يذكر العلماء هذه الملاحظات والأحكام النقدية تحليلات قامة على أسس وقواعد بيانية، وقد انتقل هذا النقد من مراحله الأولى إلى نقد بياني منظم ينظر إلى اللفظ والمعنى بصوره دقيقة على أيدي البلاغيين وقد أطلنا في تصوير ما قدمناه عن العصر الجاهلي وفصلنا ذلك في بداية البحث ضمن مباحث البلاغة ونشأتها والمراحل التي مرت بها.

التطور التاريخي للبلاغة:

إن الفنون البلاغية الثلاثة (البيان والمعاني والبديع) التي وصلت إلينا بهذا الشكل من النضج والتقعيد والمصطلحات البلاغية لا بد لها أن تكون قد مرت بطورٍ من النشوء والتطور ولابد من وجود درس بلاغي عربي اخذ على عاتقه مهمة هذا التطور، وكما في اللغة إذ لم تكن لها قبل التدوين قواعد نحوية أو صرفية كذلك البلاغة ونشأ البحث البلاغي عند العرب بعد أن

نزل القرآن الكريم وامتدت دعوة الإسلام إلى بقاع العالم وكانت نشأته تسير إلى جانب نشأة علوم اللغة العربية ويتطور بتطورها عبر القرون. أما المصـــطلحات البلاغية فأول ما ظهرت لم تكن واضـــحة المعالم دقيقة التعريفات وإنما كانت مجرد ملاحظات عابرة يدركها العرب بحكم ذوقهم وسليقتهم في التمييز بين الكلام البليغ وبينما هو اقل درجة منه وبين ما هو عارٍ عن البلاغة.

البلاغة في عصر صدر الإسلام:

لا شـك أن للقرآن تأثيراً عظيماً في نشـأة البلاغة وتطويرها فقد عكف العلماء على دراسـته وبيان أســـرار إعجازه، واتخذوه مداراً للدرس البلاغي فاتخذوا آياته شـــواهد على أبواب البلاغة واعتبروها مثالاً يحتذى به في جمال النظم ودقة التركيب.

وإذا انتقلنا إلى العصر الإسلامي لم نجد اختلافا كبيراً بين بلاغة هذا العصر وذاك، فكان العرب في صدرِ الإسلام يجرون في أساليبهم على الطبع والسليقة تارة وعلى الدربة والتثقيف تارة أخرى فيفون اللفظ والمعنى حقهما، ويصـلون إلى الغرض في إيجاز أو إطناب أو مسـاواة حسـب ما يقتضـيه المقام؛ ونزل القرآن الكريم بلسـانٍ عربيٍ مبينٍ، فقد توج فصـاحةَ العربِ، وبرهن على بلاغتِهم، فكان القرآن متحدياً هذه الفصـــاحة الكاملة وتلك البلاغة التامة، فأخذ ينمو ويتطور الاعتناء بالبلاغة بعد ظهور الإســلام، بفضــل ما جاء به القرآن الكريم وما نهج رســولنا الأعظم من خلال نقله متطورة للفصــاحة وللبلاغة ولكافة جوانب حياة المســلمين ارتفعت وارتقت، فكانت آيات القرآن تُتْلى في آناء الليل وأطراف النهار، وكان حديث رســـول الله (صـــلى الله عليه وآله وسـلم) يذيع على كل لسـان، وكانت خطبه ملء الصـدور والقلوب، وفيه يقول الجاحظ إنه ((لم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصـــمة.. وهو الكلام الذي ألقى الله اليه المحبة، وغشاه بالقلوب، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته.. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أقصد لفظا ولا عدلا وزنا ولا أجمل مذهبا ولا أكرم مطلبا ولا أحسن موقعا ولا أسهل مخرجا ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى من كلامه (صلى الله عليه وآله سلم).[٢]

وفي أخبار– الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام– ما يدل على أنه كان يعنى أشد العناية بتخير لفظه، فيذكر إنه أثر عنه أنه كان يقول: ((لا يقولن أحدكم خبثت نفس، لكن ليقول: لقست نفسي)) كراهية أن ينسب المسلم الخبث إلى نفسه .[٣]

(وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكما لا يخفى على أحد أنه أفصح العرب).

ولو تحدثنا عن فصاحته وبلاغته فلا يسعنا بحث ولا كتب وهذا الشيء يعرفه القاصي والداني كما أنه كان كثيراً ما يهتم ويعتني بالشعر والشعراء ويحرص على سماعهم ويشيد بشعرهم وله قول في ذلك لحسان رضي الله عنه "قل وروح القدس يؤيدك" وقوله عندما سمع قول النابغة الجعدي:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنبغي فوق ذلك مظهراً

فقال له الرسول "صلى الله عليه وآله" إلى أين المرتقى يا أبا ليلى": فقال إلى الجنة فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم "لا فض فوك"

وقد نقل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علمه وحكمته إلى الإمام علي عليه السلام منطلقين من حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: ((أنا مدينة العلم وعلي بابها ، فمن أراد العلم فليأته من بابه)).[٤]

بلاغة الإمام علي:

قال عامر الشعبي قال: تكلّم أمير المؤمنين عليه السلام بتسع كلمات ارتجلهنَّ ارتجالاً فقأن عيون البلاغة وأيتمن جواهر الحكمة وقطعن جميع الأنام عن اللحاق بواحدة منهن ثلاث منها في المناجاة، وثلاث منها في الحكمة، وثلاث منها في الأدب.

وأمّا اللائي في المناجاة، فقال: إلهي كفى بي عزّاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً، أنت كما أحب فاجعلني كما تحب.

واللائي في الحكمة، فقال: قيمة كلّ امرئ ما يحسنه، وما هلك امرئ عرف قدره، المرء مخبوء تحت لسانه.

واللائي في الأدب: امنن على من شئت تكن أميره، واستغن عمّن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره .[٥]

قال معاوية بن أبي سفيان (والفضل ما شهدت به الأعداء): (والله ما رأيت أحدا يخطب ليس محمدا– يقصد باستثناء محمد صلى الله عليه وآله– أحسن من علي إذا خطب، فو الله ما سن الفصاحة لقريش غيره) .[٦]

عمرو بن بحر الجاحظ "عند ذكر قول الإمام علي عليه السلام: قيمة كلّ امرئ ما يحسنه: فلو لم نقف من هذا الكتاب إلّا على هذه الكلمة لوجدناها كافية شافية ومجزية مغنية، بل لوجدناها فاضلة على الكفاية وغير مقصرة عن الغاية .[٧]

قال ابن نباته: حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيده الإنفاق إلّا سعة وكثرة حفظت مئة فصل من مواعظ الإمام علي عليه السلام.(٨)

كمال الدين محمّد بن طلحة الشافعي: في وصف علي عليه السلام– في علم البلاغة والفصاحة: وكان فيها إماماً لا يشق غباره ومقدّماً لا تكف آثاره، ومن وقف على كلامه المرقوم الموسوم بنهج البلاغة صار الخبر عنده فصاحته عياناً والظن بعلو مقامه فيه إيقاناً.(٩)

وقال أيضاً: الفصاحة تنسب إليه، والبلاغة تنقل عنه والبراعة تستفاد منه وعلم المعاني والبيان غريزة فيه.(١٠)

الشريف الرضي: وعلى أمثلته حذا كلّ قائل خطيب وبكلامه استعان كلّ واعظ بليغ.(١١)

سبط بن الجوزي: كان علي عليه السلام ينطق بكلام قد حفَّ بالعصمة، ويتكلم بميزان الحكمة، كلام ألقى الله عليه المهابة، فكلّ من طرق سمعه راعه فهابه، وقد جمع الله له بين الحلاوة والمالحة والطلاوة والفصاحة لم تسقط منه كلمة ولا بارت له حجّة، أعجز الناطقين، وحاز قصب السبق في السابقين، ألفاظ يشرق عليها نور النبوة ويحير الأفهام والألباب.(١٢)

يحيى بن حمزة العلوي: ومن خَبرَ كلامَه ومارسَ أُسلوبه ونظامه، تحقّق لا محالة أنّه قمر البلاغة المتوسطة في هالتها، والطراز الباهي في أكمَّ غِلالتها.(١٣)

وقال أيضاً: ومَن لحظَ كلامه بعين الإنصاف، وأصغى سمعه لقبول الحق ودان بالاعتراف، عرف أنّ كلامه في البلاغة شمس لا يشاركه غيره في الشعاع وأنّه في الفصاحة فلكٌ لا يُدانيه غيره في الارتفاع.(١٤)

محمّد عبدة: على ما أُودع نهج البلاغة من فنون الفصاحة وما خصّ به من وجوه البلاغة خصوصاً وهو لم يترك غرضاً من أغراض الكلام إلّا أصابه ولم يدع للفكر ممراً إلّا جابه.(١٥)

جورج جرداق:... وإنّ شروط البلاغة، التي هي موافقة الكلام لمقتضى الحال، لم تجتمع لأديبٍ عربّي كما اجتمعت لعليّ بن أبي طالب، فإنشاؤه أعلى مثلٍ لهذه البلاغة، بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و القرآن الكريم فهو موجز على وضوح، قويّ جيّاش، تامّ الانسجام لما بين ألفاظه ومعانيه وأغراضه من ائتلاف؛ حلو الرنة في الأذن موسيقيّ الوقع .(١٦)

وهو يرفق ويلين في المواقف التي لا تستدعي الشدّة، ويشتدّ ويعنف في غيرها من المواقف، ولا سيّما ساعة يكون القول في المنافقين والمراوغين وطلّاب الدنيا على حساب الفقراء والمستضعفين وأصحاب الحقوق المهدورة. فأسلوب عليّ صريحُ كقلبه وذهنه، صادق كطويّته، فلا عجب أن يكون نهجاً للبلاغة! وقد بلغ أسلوب عليّ من الصدق حدّاً ترفّعَ به حتّى السجعُ

عن الصنعة والتكلّف، فإذا هو على كثرة ما فيه من الجمل المتقاطعة الموزونة المسجّعة، أبعد ما يكون عن الصنعة وروحاً، وأقرب ما يكون من الطبع الزاخر.

فانظر إلى هذا الكلام المسجّع وإلى مقدار ما فيه من سلامة الطبع: (يعلم عجيج الوحوش في الفلوات، ومعاصـــي العباد في الخلوات، واختلاف النينان في البحار الغامرات، وتلاطم الماء بالرياح العاصفات!).

أو إلى هذا القول من إحدى خطبه: (وكذلك الســـماء والهواء، والرياح والماء، فانظر إلى الشمس والقمر، والنبات والشجر، والماء والحجر، واختلاف هذا الليل والنهار، تفجّر هذه البحار، وكثرة هذه الجبال، وطول هذه القلال، وتفرّق هذه اللغات، والألسن المختلفات...إلخ).

وأوصـــيك خيراً بهذا الســـجع الجاري مع الطبع: (ثمّ زيّنها بزينة الكواكب، وضـــياء الثواقب وأجرى سراجاً مستطيراً وقمراً منيراً، في فلك دائر، ويقف سائر...إلخ)، فإنّك لو حاولتَ إبدال لفظٍ مسجوع في هذه البدائع جميعاً، بآخر غير مسجوع، لعرفت كيف يخبو إشراقها، ويبهت جمالها، ويفقد الذوق فيها أصالته ودقّته وهما الدليل والمقياس لأعظم بلاغة.

فالسجع في هذه الأقوال العلوية ضرورة فنيّة يقتضيها الطبع الذي يمتزج بالصنعة امتزاجاً حتّى لكأنّهما من معدنٍ يبعث النثرَ شعراً له أوزانٌ وأنغام ترفق المعنى بصُوَر لفظيةٍ لا أبهى منها ولا أشهى![١٧]

وإذا قلنا: إنّ أُســلوب الإمام عليّ تتوفر فيه صــراحة المعنى وبلاغة الأداء وســلامة الذوق الفني، فإنّما نشير على القارئ بالرجوع إلى نهج البلاغة ليرى كيف تتفجّر كلمات الإمام عليّ من ينابيع بعيدة القرار في مادتها؛ وبأية حلّة فنية رائعة الجمال تَمور وتجري.

وإليك هذه التعابير الحسان في أقوال الإمام علي: (المرء مخبوء تحت لسانه).

وقوله (لا تستحي من إعطاء القليل فإن الحرمان أقل منه).

وفي قوله: (عندما تحب عدوك يحس بتفاهته). وقوله: (لا أحد يســتطيع أهانتك إلا بمســاعدتك) وقوله: (من لان عوده كثفت أغصــانه). وقوله: (أقدام متعبه وضــمير مســتريح خير من ضــمير متعب وأقدام مستريحة)

أو في قوله: (كلّ وعاء يضيق بما جعل فيه إلّا وعاء العلم فإنه يتسع).

أو في قوله أيضــاً: (لو أحبّني جبلٌ لتهافت) وقوله: (الصــمت: إجابة بارعة لا يتقنها الكثيرون). وقوله: (كثرة حسادك، شهادة على نجاحك) وقوله: (لا تحاول أن تجعل ملابسك أغلى شيء فيك

حتى لا تجد نفسك يوماً أرخص مما ترتديه) وقوله: (لا تتكلم وأنت غاضب فستقول أعظم حديث تندم عليه طوال حياتك).

أو في هذه الأقوال الرائعة: (العلم يحرسك وأنت تحرس المال). (رُبّ مفتونٍ بحسن القول فيه). (إذا أقبلتِ الدنيا على أحد أعارته محاسنَ غيره ، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه).

كن أمر الناس عندك في الحقّ سواء افعلوا الخير ولا تحقِروا منه شيئاً فإنّ صغيره كبير وقليله كثير. (هلك خزان المال وهم أحياء). (ما جاع فقير إلّا بما متّع به غنيّ)

فأنت ترى ما في أقواله هذه من الأصالة في التفكير والتعبير، هذه الأصالة التي تلازم الأديب الحقّ بصورة مطلقة ولا تفوته إلّا إذا فاتته الشخصية الأدبية ذاتها.[١٨]

ويبلغ أُسلوب الإمام عليّ عليه السلام قمة الجمال في المواقف الخطابية، أي في المواقف التي تثور بها عاطفته الجيّاشة، ويتّقد خياله فتعتلج فيه صوّرٌ حارَةٌ من أحداث الحياة التي تمرّس بها، فإذا بالبلاغة تزخر في قلبه وتتدفق على لسانه تدفّق البحار.

ويتميّز أُسلوبه، في مثل هذه المواقف، بالتكرار بغيةَ التقرير والتأثير، وباستعمال المترادفات، وباختيار الكلمات الجزلة ذات الرنين، وقد تتعاقب فيه ضروب التعبير من إخبار إلى استفهام إلى تعجّب إلى استنكار، وتكون مواطن الوقف فيه قويّةً شافية للنفس، وفي ذلك ما فيه من معنى البلاغة وروح الفنّ.

وإليك مثلاً لهذا خطبة الجهاد المشهورة، وقد خطب الإمام بها الناس لمّا أغار سفيان بن عوف ألأسدي على مدينة الأنبار بالعراق وقتل عامله عليها:

(هذا أخو غامدٍ قد بلغت خيلُه الأنبار وقتل حسّان بن حسّان البكري وأزال خيلكم عن مسالحها وقتل منكم رجالاً صالحين، وقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة، فينزعُ حِجلَها، وقُلبها، ورِعاثَها، ثمّ انصرفوا وافرينَ ما نال رجلاً منهم كلمٌ، ولا أريق لهم دم، فلو أنّ أمراً مسلماً مات من بعد هذا أسَفاً، ما كان به مَلوماً، بل كان به عندي جديراً، فيا عجباً، واللهِ يميت القلبَ ويجلب الهمّ اجتماعُ هؤلاء على باطلهم وتفرقكم عن حقّكم، فقبحاً لكم حين صرتم غرضاً يُرمى: يُغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزَون ولا تَغزون، ويُعصي الله وترضون).

فانظر إلى مقدرة الإمام الفنّية في هذه الكلمات الموجزة، فإنه تدرّج في إثارة شعور سامعيه حتّى وصل بهم إلى ما يصبو إليه في سبيل الله عز وجل، وسلك إلى ذلك ريقاً تتوفّر فيه بلاغة الأداء وقوة التأثير، فإنّه أخبرَ قومه بغزو سفيان بن عوف على الأنبار وفي ذلك ما فيه من عار يلحق بهم، ثمّ أخبرهم بأنّ هذا المعتدي إنّما قتل عامل أمير المؤمنين في جملة من قتل، وبأنّ

هذا المعتدي لم يكتفِ بذلك فأغمد سـيوفه في نحورٍ كثيرة من رجالهم وأهليهم، وفي الفقرة الثانية من الخطبة توجّه الإمام إلى مكان الحميّة من السـامعين، إلى مثار العزيمة والنخوة من نفس كلّ عربّي، وهو شرف المرأة.(١٩)

والإمام عليّ عليه السلام يعلم أنّ من العرب من لا يبذل نفسه إلّا للحفاظ على سمعةِ امرأةٍ وعلى شـرف فتاة؛ فإذا هو يعنّف هؤلاء القوم على القعود دون نصـرة المرأة التي اسـتباح الغزاة حماها ثمّ انصرفوا آمنين، ما نالتْ رجلاً منهم طعنةٌ ولا أريق لهم دمَ!

ثمّ أنّه أبدى ما في نفسـه من دهش وحيرة من أمرٍ غريب: فإنّ أعداءَه يتمسـكون بالباطل فيناصرونه، ويدينون بالشرّ فيغزون الأنبار في سبيله، فيما يقعد أنصاره حتّى عن مناصرة الحقّ فيخذلونه ويفشلون عنه!

ومن الطبيعيّ أن يغضـب الإمام في مثل هذا الموقف، فإذا بعبارته تحاًمل كلّ ما في نفسـه من الغضب، فتأتي حارّةً شديدة مسجعه مقطعة ناقمة: فقبحاً لكم حين صرتُم غرضاً يُرمى: يُغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزَونَ ولا تَغزُون، ويُعصي الله وترضون!

والخطباء في العرب كثيرون؛ والخطابة من فنونهم الأدبية التي عرفوها في الجاهلية والإسلام ولا سـيّما في عصـر النبي (صـلى الله عليه وآله وسـلم) والخلفاء الراشـدين لَما كان لهم بها من حاجة.

أما خطيب العهد النبويّ الأكبر (فالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم) لا خلافَ في ذلك.

أما في العهد الراشـدي، وفيما تلاه من العصـور العربية قاطبةً فإنّ أحداً لم يبلغ ما بلغ إليه الإمام عليّ ابن أبي طالب عليه السـلام في هذا النحو، فالنطق السـهل لدى الإمام كان من عناصر شخصيته ؛وكذلك البيان القويّ بما فيه من عناصر الطبع والصناعة جميعاً، ثمّ أنّ الله يسّر له العدّة الكاملة لِما تقتضيه الخطابة من مقوّمات أُخرى على ما مرّ بنا ،فقد ميّزه الله بالفطرة السليمة، والذوق الرفيع، والبلاغة الآسرة، ثمّ بذخيرةٍ من العلم انفرد بها عن أقرانه، وبحجّةٍ قائمة، وقوة إقناعٍ دامغة، وعبقريةٍ في الارتجال نادرة، أضـف إلى ذلك صـدقه الذي لا حدود له وهو ضرورةٌ في كلّ خطبة ناجحة، وتجاربه الكثيرة المريرة التي كشفت لعقله الجبار عن طبائع الناس وأخلاقهم وصفات المجتمع ومحرّكاته، ثمّ تلك العقيدة الصلبة التي تصعب مداراتها، وذلك الألم العميق الممزوج بالحنان العميق، وبطهارة القلب وسلامة الوجدان وشرف الغاية.(٢٠)

وإنّه لمن الصعب أن نجد في شخصيات التاريخ بعد خير البشر ممن اجتمعتْ لديه كلّ هذه الشروط التي تجعل من صاحبها خطيباً فذّاً،غير الإمام عليّ بن أبي طالب.

وما عليك إلّا استعراض هذه الشروط، ثمّ استعراض مشاهير الخطباء في العالمين الشرقي والغربي، لكي تدرك أنّ قولنا هذا صحيح لا غلوّ فيه.

أما إنشاؤه الخطابي فلا يجوز وصفه إلّا بأنّه أساسّ في البلاغة العربية.

يقول أبو هلال العسكري صاحب (الصناعتين): (ليس الشأن في إيراد المعاني– وحدها– وإنّما هو في جودة اللفظ، أيضاً، وصفائه وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحّة السبك والتركيب والخلوّ من أود النظم والتأليف.

من الألفاظ ما هو فخمٌ كأنّه يجرّ ذيول الأرجوان أنفةً وتيهاً.

ومنها ما هو ذو قعقعةٍ كالجنود الزاحفة في الصفيح.

ومنها ما هو كالسيف ذي الحدّين.

ومنها ما هو كالنقاب الصفيق يُلقى على بعض العواطف ليستر من حدّتها ويخفّف من شدّتها.

ومنها ما له وميض البرق.

ومنها ما له ابتسامة السماء في ليالي الشتاء!

ومن الكلام ما يفعل كالمقرعة وهو كلام الانتقاد والتنديد.

ومنه ما يجري كالنبع الصافي وهو المعدّ للرضا والغفران.[٢١]

ومنه ما يضيء كالشهاب وهو كلام التعظيم، كذلك من الكلام ما ليس له طابع خاص فيؤتى به لتقوية الجملة ودعم المعنى فهو يلائم كلّ حال).

كلّ ذلك ينطبق على خطب الإمام علي في مفرداتها وتعابيرها، هذا بالإضافة إلى أنّ الخطبة تحسن إذا انطبعت بهذه الصفات اللفظية على رأي صاحب الصناعتين؛ فكيف بها إذا كانت، كخطب ابن أبي طالب، تجمع روعة هذه الصفات في اللفظ إلى روعة المعنى وقوّته وجلاله!

وإليك ما جاء في فصلٍ سابقاً لنا من هذا الكتاب تحت عنوان (الضمير العملاق) بصدَد بيان الإمام عليّ، لا سيَّما ما كان منه في خطبه:

نهجُ البلاغة آخذٌ من الفكر والخيال والعاطفة آياتٍ تتصل بالذوق الفنّي الرفيع ما بقي الإنسان وما بقي له خيال وعاطفة وفكر؛ مترابط بآياته متساوق؛ متفجر بالحس المشبوب والإدراك البعيد، متدفّق بلوعة الواقع وحرارة الحقيقة والشوق إلى معرفة ما وراء هذا الواقع؛ متآلف يجمع بين جمال الموضوع وجمال الإخراج حتّى ليندمج التعبير بالمدلول، أو الشكل بالمعنى، اندماج الحرارة بالنار

والضوء بالشمس والهواء بالهواء؛ فما أنت إزاءَه إلّا ما يكون المرء قبالةَ السيل إذ ينحدر والبحر إذ يتموّج، والريح إذ تطوف.

أو قبالةَ الحَدَثِ الطبيعي الذي لابدّ أن يكون بالضرورة على ما هو كائنٌ عليه من الوحدة لا تفرّق بين عناصرها إلّا لتمحو وجودها وتجعلها إلى غير كوْن!

بيانٌ لو نطق بالتقريع لا نقضّ على لسان العاصفة انقضاضاً!

ولو هدّد الفساد والمفسدين لَتفجّر براكينَ لها أضواء وأصوات!

ولو أنبسط في منطقٍ لخاطب العقول والمشاعر فأقفل كلّ باب على كلّ حجّة غير ما ينبسط فيه! ولو دعا إلى تأملٍ لرافق فيك منْشأَ وأصل التفكير، فساقك إلى ما يريده سَوْقاً، ووصَلَكَ بالكون وصْلاً، ووحّد فيك القوى للاكتشاف توحيداً؛ وهو لو راعاك لأدركت حنان الأب ومنطق الأبوّة وصدق الوفاء الإنساني وحرارة المحبة التي تبدأ ولا تنتهي![٢٢]

أما إذا تحدّث إليك عن بهاء الوجود وجمالات الخلق وكمالات الكون، فإنّما يكتب على قلبك بمدادٍ من نجوم السماء!

بيانُ هو بلاغةُ من البلاغة، وتنزيلٌ من التنزيل، بيان اتّصل بأسباب البيان العربي ما كان منه وما يكون، حتّى قال أحدهم في صاحبه: إنّ كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).[٢٣]

وقال أيضاً: ... أمّا الخيال في (نهج البلاغة) فمديدٌ وسيع خفّاق الجوانح في كلّ أفق! وبفضل هذا الخيال القوي، الذي حُرم منه كثير من حكماء العصور ومفكّري الأُمم، كان عليّ يأخذ من عقله وتجاربه المعاني ذات الموضوعية الخالصة، ثمّ يطلقها زاهيةُ متحركة في إطار تثبت على جنباته ألوانُ الجمال على أروع ما يكون اللون، فالمعنى، مهما كان عقليّاً جافاً، لا يمرّ بمخيّلة عليّ حتّى تنبت له أجنحةٌ تقضي فيه على صفة الجمود وتُبلوِرُ ما فيه من حقيقة.

فخيال الإمام عليّ هو نموذج للخيال العبقريّ الذي يقوم على أساسِ من الواقع العميق، فيحيط بهذا الواقع ويبرزه ويجلّيه، ويجعل له امتداداتٍ من معدنه وطبيعته، ويصبغه بألوانٍ كثيرة من مادّته ولونه. فإذا الحقيقة تزداد وضوحاً وإذا بطالبها يقع عليها أو تقع عليه!

وقد تميّز الإمام بقوة ملاحظة نادرة، ثمّ بذاكرةٍ واعية تخزن وتتّسع، وقد مرَّ من أطوار حياته بعواطفّ جرّها عليه حقدُ الحاقدين ومكر الماكرين، ومرّ منها كذلك بعواطف كريمة أحاطه بها وفاءُ الطيّبين وإخلاص المخلصين.

فتيسّـرت له من ذلك جميعاً عناصـرُ قوية تغذّي خياله المبدع؛ فإذا بها تتعاون في خدمة هذا الخيال وتتسـاوق في لوحاتٍ رائعة حيّة، شـديدة الروعة والحيوية، تتركّز على واقعيةٍ عميقة وتمتدّ لها فروعٌ وأغضان، ذات أوراق وأثمار!

ومن ثمّ يمكنك، إذا شـئت، أن تحوّل عناصـر الخيال القويّ في (نهج البلاغة) إلى رسـومِ مخطوطة باللون، لشدّة واقعيتها واتسّاع مجالها وامتداد أجنحتها وبروز خطوطها.

ألا ما أروع خيالَ الإمام إذ يخاطب أهل البصـرة وكان بنفسـه ألمُ منهم بعد موقعة الجمل، قائلاً: (لَتَغرِقَنّ بلدتُكم حتّى كأنيّ أنظرُ إلى مسجدها كجؤجؤ طير في لجّة بحر).

أو في مثل هذا التشبيه الساحر: (فِتَنٌ كِقِطَع الليل المظلم).

أو هذه الصورة المتحركة: (وإنّما أنا كقطب الرحى: تدور عليّ وأنا بمكاني).

أو هذه اللوحة ذات الجلال التي يشـبّه فيها امتدادات بيوت أهل البصـرة بخراطيم الفيّلة، وتبدو له شرفاتهن كأنّها أجنحة النسور: (ويلُ لِسِكَكِكم العامرة، والدور المزخرفة التي لها أجنحةُ كأجنحة النسور وخراطيم كخراطيم الفّيلة).

أما في قوله البحث عن الحق وأتباعه: فيجب على الإنسـان أن يفتّش عن الحقّ ويبحث عنه إزاء أيّ قضية أو أمر مستخدماً المقياس الصّحيح للتعرّف على الحقّ ولو كلّفه ذلك جهوداً وعناءً، يقول: "وَخُض الْغَمَرات لِلْحَقّ حَيْثُ كَان".

ففي بعض الأحيان يغلّف الباطل بغلاف الحقّ، ويلبس مسوحه، وهو: ما وقع فيه المسلمين بعد (رسول الله صلى الله عليه وآله) وما نعاني منه في وقتنا الحاضر حيث ترتفع شعارات الحق بمختلف العناوين والمظاهر كشـعار الوحدة والحرية والعدالة والتقدّم، ولاشـكّ أنّ مضـمون هذه الشّـعارات بذاتها هدف حق، ولكن من يرفعها إنّما يسـتغلّها من أجل الباطل؛ فعلى الإنسـان أن يكون ذكياً واعياً لا تخدعه الشّعارات ولا تغرّه المظاهر البراقة الباطلة.

ويلفتنا الإمام إلى هذه الحقيقة الهامة "استغلال الشّعارات" حينما سمع شعار الخوارج: «لاَ حُكْمَ إِلاَّ للهِ»، وهل يوجد مسلم يعترض على هذا الشّـعار أو يُناقش فيه؟ لذا قال الإمام: « كَلِمَةُ حَقٍ يُرادُ بِهَا بَاطِل»

والأخطر من ذلك أن يمزج الحقّ بشـيء من الباطل أو تطعّم قضـية باطلة بشـيء من الحقّ، فهنالك يسـهل الانخداع ويمكن التّضـليل إلاّ للواعي الذي يسـتطيع أن يشـرّح القضـية ويكتشف مكمن الباطل فيها.

أمّا النظرية الفنّية القائلة بأنّ كلّ قبيح في الطبيعة يصبح جميلاً في الفنّ، فهي إن صحّت فإنّما الدليلُ عليها قائمٌ في حديث ابن أبي طالب عن سكان القبور.

هذا الذكاء وهذا الخيال في (نهج البلاغة) يتّحدان اتحاد الطبيعة بالطبيعة مع العاطفة الشديدة التي تمدّها بوهج الحياة. فإذا الفكرة تتحرك وتجري في عروقها الدماءُ سخّية حارة. وإذا بها تخاطب فيك الشعورَ بمقدار ما تخاطب العقلَ لانطلاقها من العقل الذي تمدّ العاطفة بالدفء. وقد يصعب على المرء أن يعجب بأثر من آثار ألفكر أو الخيال في ميادين الأدب وسائر الفنون، إن لم تكن للعاطفة مشاركةٌ فعّالة في إنتاج هذا الأثر.

ذلك أنّ المركّب الإنساني لا يرضيه، طبيعياً، إلّا ما كان نتاجاً لهذا المركّب. وهذا الأثر الأدبي الكامل، هو ما نراه في نهج البلاغة. وإنّك لتحسّ نفسك مندفعاً في تيّار جارف من حرارة العاطفة بسائر ألوانها وأنت تسير في نهج البلاغة من مكان إلى آخر.

أفلا يشيع في قلبك الحنان والعطف شيوعاً وأنت تصغي إلى الإمام يقول: (لو أحبّني جبلٌ لتهافت). أو: (لا رأي لمن لا يطاع!). أو: (دعوني والتمسوا غيري). أو: (يا دنيا غرّي غيري!). أو في هذا القول الموجز الزاخر بالحنان: (فقْدُ الأحبّة غرب).

أو في قوله: (اللهم إنّي أستعديك على قريش، فإنّهم قد قطعوا رحمي واكفوا إنائي، وقالوا: ألا إنّ في الحق أن نأخذه وفي الحق أن تمنعه، فاصبر مغموماً أو متْ متأسفاً. فنظرتُ فإذا ليس لي رافدٌ ولا ذابّ ولا مساعدٌ إلّا أهل بيتي!).

وإليك هذا الجمال في العاطفة، وهذه القوة في كلامٍ له عند دفن السيّدة فاطمة "عليها السلام"، ويخاطب به ابن عمه الرسول: (السلام عليك يا رسول الله عنّي وعن ابنتك النازلة في جوارك، والسريعة اللحاق بك! قَلّ، يا رسول الله،عن صفيّتك صبري، ورقّ عنها تجلّدي، إلّا أنّ لي في التأسّي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك، موضع تعَزّ؟)، ومنه: (أمّا حزني فسرْمد، وأما ليلي فمسّهد، إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم!).[٢٤]

وأخبر ضرار بن حمزة الضابئ قال: فأشهد لقد رأيته– يقصد الإمام– في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وهو قائم في ظلامه قابض على لحيته يتململ ويبكي بكاء الحزين ويقول: (يا دنيا يا دنيا إليكِ عني! أبي تعرّضتِ؟ أم إليّ تشوّفتِ؟ لا حان حينك، هيهات؟ غرّي غيري، لا حاجة لي فيك، طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها! فعيشكِ قصير، وخطرك يسير، وأملك حقيرَ! آه من قلّة الزاد وطول الطريق وبعد السفر وعظيم المورد!).

هذه العاطفة الحارة الشـــريفة التي عرفها الإمام في حياته، تواكبه أنّى اتّجه في (نهج البلاغة) حيث سار. تواكبه في ما يحمل على الغضب والسخط، كما تواكبه في ما يثير العطف والحنان.

حتّى إذا رأى تخاذل أنصـــاره عن مســـانده الحقّ فيما يناصـــر الآخرون الباطل ويحيطونه بالسلاح والأرواح، تألّم وشكا، ووبَخ وأنّب، وكان شديداً قاصفاً، مزمجراً، كالرعد في ليالي الويل! ويكفيك أن تقرأ خطبة الجهاد التي تبدأ بقوله: (أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهي الصمّ الصلاب الخ).

لتدرك أية عاطفة متألمة متوجعة ثائرة هي تلك التي تمدّ هذه الخطبة ينبْض الحياة وجيشانها!.[٢٥]

ما قيل عن الإمام علي بن أبي طالب:

ميخائيل نعيمة: إنّ علياً لمن عمالقة الفكر والروح والبيان في كلّ زمان ومكان، وقال أيضـــاً: إنّه من بعد النبي صلى الله عليه وآله، سيّد العرب على الإطلاق بلاغة وحكمة وتفهماً للدين وتحمساً للحق.[٢٦]

جبران خليل جبران: أمّا بلاغة الإمام علي فإنّها النور ذو المناهج والطرق التي تاه عنها العرب فلم يفهموها ومنهم من آثروا عليها ظلمات أيامهم يتيهون في شعابها رجوعاً إلى الجاهلية واتصالاً بمن تمثل بهم الجاهلية من سماسرة المنافع وتجار الأعناق.[٢٧]

وقال أيضاً: إنّ تاج لويس الرابع عشر مع ما رصع به من كرائم الأحجار وغوالي اللآلئ لا يعدل في ميزان الحقيقة نعل الإمام علي التي قال لابن عبّاس عنها ما قال.[٢٨]

محمّد محيي الدين: وهو الكتاب الذي جمع بين دفتيه عيون البلاغة وفنونها وتهيأت به للناظر فيه أسباب الفصاحة ودنا قطافها.[٢٩]

مرشـــلوس– في المجلّد الأوّل في كتابه رحلة إلى الشـــرق: اللغة العربية هي الأغنى والأفصـــح والأكثر والألطف وقعاً بين ســـائر لغات الأرض بتراكيب أفعالها تتبع طيران الفكر وتصـــوره بدقة وبأنغام مقاطعها الصـــوتية، تقلّد صـــراخ الحيوانات ورقرقة المياه الهاربة وعجيج الرياح وقصـــف الرعد، أمّا هذه اللغة.... فإنّك واجدٌ أُصـــولها وفروعها وجمال ألوانها وســـحر بيانها في أدب عليّ ابن أبي طالب.[٣٠]

هبة الدين الشـــهرســـتاني: لقد حاورني ببغداد ســـنة ١٣٢٨هـــــ رئيس كتّاب القنصـــلية البريطانية (نرسيسيان) من فضـــلاء الأرمن زاعماً تفوق البلاغة على كلّ كلام عربي لكثرة ما فيه من السهل

الممتنع الذي لا يوجد في سواه وانقياد الأسجاع الصعاب فيه بلا تكلف واستشهد بقوله عليه السلام: أم هذا الذي أنشاه في ظلمات الأرحام... وبصراً لاحظاً.[٣١]

معجباً بحسن التسجيع وكيف يجري الروي كالماء السلسال على لسان الإمام عليه السلام ثمّ قال: ولو كان يرقى هذا الخطيب العظيم منبر الكوفة في عصرنا هذا لرأيتم مسجدها على سعته يتموج بقبعات الإفرنج للاستسقاء من بحر كلمه الزاخر.

قال الشيخ محمد بن طلحة الشافعي: (الفصاحة تنسب إليه، والبلاغة تنقل عنه والبراعة تستفاد منه، وعلم المعاني والبيان غريزة فيه).[٣٢]

نعم هذه هي صفاته (ع)، ثم أنه تفرد بخصائص ومزايا لم يشاركه فيها أحد ممن عاصره، أو ممن جاء بعده– إذا استثنينا أستاذه ومعلمه نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم– وما الحديث عن فصاحة هذا الرجل وبلاغته إلاّ جزءا يسيرا من جوانب عظمته .

ولا يظن أحد ممن يطلع على بحثي لاحقاً إنني في هذا مبحث تطور البلاغة في التأريخ العربي التي مررت بها، قد أُريد إثبات فصاحة الإمام علي (عليه السلام) أو بلاغته، فهذه حقيقة قد تسالم عليها الأولون والآخرون، ومهما اختلف الناس في شيء من مناقبه وفضائله، فإنهم لا يختلفون بأنه إمام الفصحاء وسيد البلغاء، وأن كلامه أشرف الكلام وأبلغه بعد كلام الله جَلَّ وعلا وكلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

وحتى الذين شككوا في صحة نسبة بعض ما في نهج البلاغة لهُ فهم لم يشكوا طرفة عين أبدا بأنه لا يدانى ولا يجارى في الفصاحة والبلاغة، وأنه بزّ الأولين، ولم يلحق بشأوه الآخرون، وإن ما ورد عنه في كتب الأدب والبيان (من غير النهج) كاف لإثبات هذه الحقيقة .

أثر نهج البلاغة في الأدب العربي:

نهج البلاغة هذا الكتاب التراثي الضخم والبحر الزاخر في شتى المجالات والجوانب يحوي على مختلف الثقافات والأفكار القيمة والمثل العلياء والنبل الحميدة هذا من جانب، وعلى الثروة اللغوية والأدبية والبلاغية من جانب آخر.

فالبلاغة تزخر في قلب قائلها عليه السلام وتتدفق على لسانه، وكيف لا، وهو ارتضع من فم الرسالة المحمّدية.

وكان منذ نعومة أظفاره ينهل منها، فتعلم الكثير، ونعيد قول رسول الله صلى الله عليه وآله: (أنا مدينة العلم وعلي بابها) وأنّ هذا الشعار الذي رفعه النبي صلى الله عليه وآله قد تحقّق، فكان الإمام علي عليه السلام سيّد البيان وعملاق الفصاحة وأمير الأدب وعبقري البلاغة.

فقد اتخذ الإمام عليه السلام أُسلوباً بلاغياً وطريقاً خاصّاً لم يسبقه أحد من قبل غير رسول الله صـلى الله عليه وآله وسـلم، فعبارته انسـيابية تنسـاب كالماء كما عبر عنها ابن بي الحديد، وكلامـه كما قالوا: فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق ورسـولـه، وها هم الأدباء والكتّاب والشعراء قد أخذوا من كلماته وحكمه وضمنوها في كتاباتهم وأشعارهم، ومن هؤلاء شاعر العرب الكبير أبي الطيب المتنبي حيث يقول:

كذا الدنيا على من كان قبلي صروف لم يدُمنَ عليه حالا

وهذا مأخوذ من خطبته في وصـفة الدنيا عليه السـلام: دار بالبلاء محفوفة... إنّكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى قبلكم.[٣٣]

وقوله أيضاً:

إذ أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وهذا مأخوذ من قوله عليه السلام :" احذروا صولة الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع".[٣٤]

وقول أبي العتاهية:

إنّما الدهر أرقم ليّن ألمسّ وفي نابه السنام العُقام

وهذا مأخوذ من قوله عليه السلام: مثل الدنيا كمثل الحية لين مسها والسم الناقع في جوفها يهوي إليها الغِر الجاهل ويحذرها ذو اللب العاقل.[٣٥]

وقوله أيضاً:

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى تراب

وهذا مأخوذ من قوله عليه السـلام: إنّ ملكاً ينادي في كلّ يومٍ: لدوا للموت، واجمعوا للفناء، وابنوا للخراب .[٣٦]

وقول الطغرائي:

الجود والإقدام في فتيانهم والبخل في الفتيات والإشفاق

والطعن في الأحداق رماتهم والراميات سهاماً الأحداقُ

وهذا مأخوذ من قوله عليه السلام: (خيار خصال النساء شرار خصال الرجال).[٣٧]

وكقول بعض الشعراء:

تفني اللذاذة ممن نال بغيته من الحرام ويبقى الإثم والعارُ

تبقي عواقب سوء في مغبتها لا خير في لذة من بعدها النارُ

وهذا مأخوذ من قوله عليه السلام: شتان بين عملين: عمل تذهب لذته وتبقى تبعته وعمل تذهب مئونته ويبقى أجره.(٣٨)

وقول الحسن البصري في إحدى خطبه: رحم الله أمراً كسب طيباً... قوماً كانوا إذا جنَّهم اللّيل، فقيام على أطرافهم، يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خُدودهم، يناجون مولاهم في فكاك رقابهم .(٣٩)

وهذه العبارات في الخطبة مأخوذة من قول الإمام علي عليه السلام (أما اللّيل فصافّون أقدامهم... مفترشون لجباههم وركبهم وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله فكاك رقابهم).(٤٠)

وقد قال الشريف الرضي: كان الحسن البصري بارع الفصاحة، بليغ المواعظ كثير العلم، وجميع كلامه في الوعظ، وذمّ الدنيا أو جلّه مأخوذ لفظاً ومعنىً، أو معنىً دون لفظ من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فهو القدوة والغاية .(٤١)

وهذا غيضٌ من فيض، وصدق مرشلوس حين قال: أمّا هذه (اللغة العربية)... فإنّك واجدٌ أُصولها وفروعها وجمال ألوانها وسحر بيانها في أدب الإمام علي.

وقد استمرت وفود العرب في عهد الخلفاء يفدون إلى المدينة ويجتمعون في أنديتها ويخوضون في قصائد شعراء الجاهلية والشعراء والمخضرمين ويدققون في الأشعار والخطب ويجرون التفاضل بين الشعراء والخطباء وكان الخلفاء يخوضون في ذلك ولهم مشاركات في النقد من ذلك ما روى عن أبي بكر أنه عرض لرجل معه ثوب فقال له: أتبيع الثوب؟ فأجاب: لا عافاك الله فقال له أبو بكر: علمتم لو كنت تعلمون قل لا وعافاك الله "وقد كانت لعمر مساهمات في النقد، فقد كان عمر بن الخطاب من أنقد أهل زمانه للشعر وأنفذهم فيه معرفة من ذلك قوله "الشعر علم قوم لم يكن له علم أعلم منه".

وبهذا تبين لك أن للخلفاء معرفة بالشعر ونقده، كما أن ملاحظاتهم النقدية كانت كالجاهليين جزئية فطرية تعتمد على الذوق دون تعليل لها.

هذه الأحكام والملاحظات هي التي استحالت على أيدي البلاغيين من أمثال الباقلاني والرماني والعسكري وعبد القاهر والسكاكي إلى قواعد بلاغية محددة تحديداً علمياً دقيقاً قصد منها الوقوف على وجه إعجاز القرآن البلاغي وتكوين الذوق الأدبي الذي يستطيع إنشاء الكلام البليغ ومعرفة جيدة ويفاضل بينه.

وهنا سؤال على قدر كبير من الأهمية لِمَ تظفر البلاغة التعليمية بشيء من التدوين في عصر صدر الإسلام مادام أن تدوينها وتعليمها من أمور الدين أو من الأمور التي يحتاج إليها المسلم كما يحتاج إلى معرفة الحلال والحرام؟.

الجواب على ذلك: أن الصحابة والتابعين كانوا يعرفون من القواعد البلاغية التي يقوم عليها إنشاء الكلام الفني والتي كانوا يعتمدون عليها في تمييز الكلام الجيد من الرديء لأنها كانت مركوزه في طبائعهم لذلك لم يحتاجوا إلى تدوينها على حد قوله .[٤٢]

ويعلل الزركشي صاحب كتاب البرهان في علوم القرآن عدم تدوين البلاغة في صدر الإسلام بأن القصد من إنزال القرآن الكريم تعليم الحلال والحرام وتعريف شرائع الإسلام وقواعد الإيمان، ولم يقصد منه تعليم طرق الفصاحة، وإنما جاءت الفصاحة لتكون معجزة، وكانت معرفتهم بأساليب البلاغة مما لا يحتاج إلى بيان، بخلاف استنباط الأحكام، فلهذا تكلموا في الثاني دون الأول ألوان من المقابلات والجناسات، مما يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يعنون عناية واسعة بإحسان الكلام والتفنن في معارضة البليغة .[٤٣]

النتائج والتوصيات:

توصي الدراسة بتوضيح الدلالات البلاغية الكامنة وإدراك سمات الكلام البليغ لا يتأتى إلا عن طريق الدرس والبحث والتأمل فهي في الوقت ذاته جزء مكمل لثقافة الناقد والأديب، فدراسة البلاغة إذن ليست ضرورية فقط لمن يريد أن يجعل اللغة وأدبها ميدان تخصصه، وإنما هي ضرورية له وللناقد والأديب على حد سواء، وتوصي بإدراك أثر الدرس البلاغي في تفسير آي الذكر الحكيم ودراسة السورة لفظياً وتركيبياً ونحوياً.

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.
٢. الشريف الرضي، مقدمة نهج البلاغة، ص ٨.
٣. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ)، البيان والتبيين تحقيق عبد السلام محمد هارون، مصر، ١٩٦٠م، ج٢
٤. الجاحظ، الحيوان، (طبعة الحلبي) ج١، ص ٣٣٥.
٥. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج٢ / ١٣٢.
٦. السيد عبد الزهرة الحسيني، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، دار أضواء، بيروت، لبنان: ١٩٨٥م: ج١: ص٤٣.

٧. السيد عبد الزهرة الحسيني، مصادر نهج البلاغة وأسانيده: ج ١ ص٤٢٢.
٨. الشريف الرضي أبي الحسن محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم (ت٤٠٦هـ)، نهج البلاغة، تحقيق: الشيخ فارس الحسّون، باب المختار، دار الكتب المصري القاهرة، (د.ت)، باب أروع ما قاله الإمام علي عليه السلام: ص ٦.
٩. الشريف الرضي علي بن الحسين الموسوي العلوي، أمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه)، ط١: ١٣٧٣هـ /١٩٥٤م، جـ١: ص ١٥٣.
١٠. الطبري، ذخائر العقبى، ص٧٧، والذهبي، ميزان الاعتدال، جـ٢، ص ٢٥١، تذكرة الحفاظ، الذهبي، جـ٤ ، ص ١٢٣١، ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، جـ٢ ،ص١٢٢.
١١. العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ص١٦٠.
١٢. بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، ٢٠٠٣م: ٥٣/١.
١٣. جورج جرداق، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، مطابع أنصاريان- لبنان، ١٩٥٦: ص ٣١٧.
١٤. جورج جرداق، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية: ص ٣٢٤.
١٥. سبط ابن الجوزي، هو شمس الدين أبو المظفّر بن قُزُغْلي بن عبد الله البغدادي، (ت٦٥٤هـ) تذكرة خواصّ الأمّة، دار العلوم . بيروت، ط١٤٢٥:١هـ / ٢٠٠٤ م: ص ١١٣.
١٦. شوقي ضيف، البلاغة تطوّر وتاريخ، الطبعة التاسعة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م، ص
١٧. عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد (ت٦٥٦)، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثانية، ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥م، جـ١: ص٢٨.
١٨. محمد بن طلحة الشافعي (ت ٦٦٢هـ)، مطالب السئول في مناقب آل الرسول، مؤسسّة البلاغ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.،ج١ص١٣٧.
١٩. محمد بن طلحة نصيبي (ت٦٥٢هـ)، مطالب السئول في مناقب آل الرسول: مؤسسة البلاغ- بيروت، ط:١، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م: ص١٣٥.
٢٠. نهج البلاغة لمحمد عبده: مقدمة الكتاب: ص ٤.

الهوامش:

[١]– شوقي ضيف، البلاغة تطوّر وتاريخ، الطبعة التاسعة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٧٥.

[٢]– الجاحظ، البيان والتبيين، جـ٢/ص ١٧.

[٣]– الجاحظ، الحيوان، (طبعة الحلبي) جـ١، ص ٣٣٥.

[٤]– الطبري، ذخائر العقبى، ص٧٧، والذهبي، ميزان الاعتدال، جـ٢، ص ٢٥١، تذكرة الحفاظ، الذهبي، جـ٤ ، ص ١٢٣١، ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، جـ٢ ،ص١٢٢.

[٥]– الشريف الرضي أبي الحسن محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم (ت٤٠٦هـ)، نهج البلاغة، تحقيق: الشيخ فارس الحسّون، باب المختار، دار الكتب المصري القاهرة، (د.ت)، باب أروع ما قاله الإمام علي عليه السلام: ص ٦.

[٦]– السيد عبد الزهرة الحسيني، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، دار أضواء، بيروت، لبنان: ١٩٨٥م: جـ١: ص٤٣.

[٧]– الجاحظ، البيان والتبيين: ج١ ص٨٣.

[٨]– عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد (ت٦٥٦)، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثانية، ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥م، جـ١: ص٢٨.

[٩]– محمد بن طلحة نصيبي (ت٦٥٢هـ)، مطالب السئول في مناقب آل الرسول: مؤسسة البلاغ– بيروت، ط:١، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م: ص١٣٥.

[١٠]– محمد بن طلحة نصيبي، مطالب السئول في مناقب آل الرسول: ص٢٠٥.

[١١]– الشريف الرضي، مقدمة نهج البلاغة، ص ٨.

[١٢]– سبط ابن الجوزي، هو شمس الدين أبو المظفّر بن قُزُغْلي بن عبد الله البغدادي، (ت٦٥٤هـ) تذكرة خواصّ الأمّة، دار العلوم . بيروت، ط١٤٢٥:١هـ / ٢٠٠٤ م: ص ١١٣.

[١٣]– العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ص١٦٠.

[١٤]– المصدر السابق: ص ١٨٣.

[١٥]– نهج البلاغة لمحمد عبده: مقدمة الكتاب: ص ٤.

[١٦]– جورج جرداق، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، مطابع أنصاريان– لبنان، ١٩٥٦: ص ٣١٧.

[١٧]– المصدر السابق، ص٣١٨.

[١٨]– جورج جرداق، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ص٣١٩.

[١٩]– جورج جرداق، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ص٣٢٠.

[٢٠]– جورج جرداق، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ص٣٢١.

[٢١]– جورج جرداق، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ص٣٢٢ .

[٢٢]– جورج جرداق، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ص٣٢٣.

[٢٣]– جورج جرداق، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ص ٣١٧– ٣٢٣.

[٢٤]– جورج جرداق، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ص٣٠٥.

[٢٥]– جورج جرداق، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ص٣٠٤– و٣٠٨.

[٢٦]– المصدر السابق: ص ٣٦٥.

[٢٧]– المصدر السابق: ص٣٦٣.

[٢٨]– السيد عبد الزهرة الحسيني، مصادر نهج البلاغة وأسانيده: ج ١ ص٤٢٢.

[٢٩]– السيد عبد الزهرة الحسيني، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ج١: ص ٨.

[٣٠]– جورج جرداق، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية: ص ٣٢٤.

[٣١]– الشريف الرضي، نهج البلاغة: ص٤.

[٣٢]– محمد بن طلحة الشافعي (ت ٦٦٢هـ)، مطالب السئول في مناقب آل الرسول، مؤسسّة البلاغ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.،ج١ص١٣٧.

[٣٣]– الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة رقم ٢٢٦، ص٥٦١.

[٣٤]– المصدر السابق، حكمة رقم ٤٩.

[٣٥] –المصدر السابق، الحكمة رقم ١٢٠.

[٣٦]– المصدر السابق، الحكمة رقم ١٣٢.

[٣٧]– الشريف الرضي، نهج البلاغة ،حكمة رقم ٢٣٤.

[٣٨]– المصدر السابق، حكمة رقم ١٢١.

[٣٩]– المصدر السابق: ج٢ ص ٤٨.

[٤٠]– المصر السابق، الخطبة رقم ١٩٣.

[٤١]– الشريف الرضي علي بن الحسين الموسوي العلوي، أمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه)، ط١: ١٣٧٣هـ /١٩٥٤م، جـ١: ص ١٥٣.

[٤٢]– بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، ٢٠٠٣م: ٥٣/١.

[٤٣]– الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج٢ / ١٣٢.